

Cognitive Psychology: between Theory of Mind and Philosophy of Mind

Pr. Abdelkader AZDAD¹

Faculty of Letters & Humanities - Ain Chock,
Hassan II University, Casablanca - Morocco

Science Step Journal / SSJ

December 2023/Volume 1- Issue 3

DOI: <https://doi.org/10.6084/m9.figshare.24922167>

To cite this article: AZDAD, A. (2023, December). Cognitive Psychology: between Theory of Mind and Philosophy of Mind. Science Step Journal, I(3), 1-16. ISSN: 3009-500X.

Abstract

This The topic under consideration is the relationship between cognitive psychology, theory of mind, and philosophy of mind. This area of inquiry is of particular interest to scholars and practitioners in the fields of psychology, philosophy, and cognitive science.

Cognitive psychology is concerned with the study of mental processes such as perception, memory, attention, and language. Theory of mind refers to the ability to attribute mental states such as beliefs, desires, and intentions to oneself and others. Philosophy of mind, on the other hand, is concerned with the nature of consciousness, perception, and thought.

The relationship between these three areas of inquiry is complex and multifaceted. On the one hand, cognitive psychology has contributed significantly to our understanding of theory of mind by providing empirical evidence for the existence and development of this cognitive ability. On the other hand, philosophy of mind has provided a theoretical framework for understanding the nature of mental states and their relation to the physical world.

Overall, the study of cognitive psychology, theory of mind, and philosophy of mind provides important insights into the workings of the human mind and the nature of consciousness. It is an area of inquiry that continues to generate significant interest and research in both academic and professional settings.

Keywords:

Cognitive Psychology - Theory of Mind - Philosophy of Mind

¹ Professor of Higher Education, specializing in Cognitive Psychology
Head of the Psychology Department, Faculty of Arts and Human Sciences, Ain Chock
Laboratory Director: Archaeological signs, Psychology and History, Comparative Approaches
Head of the Research Team: Psychology, Human Culture and Society. Hassan II University, Casablanca.

السيكولوجيا المعرفية بين نظرية الذهن وفلسفة الذهن

ذ. عبد القادر أزداد²

كلية الآداب والعلوم الانسانية – عين الشق،
جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء – المغرب

ملخص:

يهتم علم النفس المعرفي بدراسة العمليات مثل الإدراك والذاكرة والانتباه واللغة. تحيل نظرية الذهن إلى العمليات العقلية مثل الانتباه واستخدام اللغة والادراك والذاكرة واستراتيجيات التعلم. في حين تهتم فلسفة الذهن بطبيعة الوعي والادراك والفكر وعدد من المفاهيم المجاورة الأخرى.

العلاقة بين مجالات البحث الثلاثة هذه معقدة ومتعددة الأوجه. فمن ناحية، ساهم علم النفس المعرفي بشكل كبير في فهمنا لنظرية الذهن من خلال تقديم الأدلة التجريبية لوجود هذه العمليات المعرفية وتطورها. ومن ناحية أخرى، قدمت فلسفة الذهن إطاراً نظرياً لفهم طبيعة الحالات العقلية وعلاقتها بالعالم المادي.

عموماً، سنحاول من خلال هذه المقالة تسليط الضوء على طبيعة العلاقة بين علم النفس المعرفي ونظرية الذهن وفلسفة الذهن، والوقوف على أبرز التقاطعات النظرية بينهم، وأهميتها في معالجة عدد من القضايا السيكولوجية التي تثير اهتمام الباحثين والمتخصصين، في كل من الأوساط الأكاديمية والمهنية.

كلمات مفتاحية:

السيكولوجيا المعرفية - نظرية الذهن - فلسفة الذهن

² أستاذ التعليم العالي متخصص في علم النفس المعرفي

رئيس شعبة علم النفس بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق

مدير مختبر: علامات أركيولوجيا، علم النفس والتاريخ، مقاربات مقارنة

رئيس فريق البحث: علم النفس، الانسان والثقافة والمجتمع. جامعة الحسن الثاني الدار البيضاء.

مقدمة

بالرغم من أن موضوعات وإشكالات العلوم المعرفية في حقيقتها ظلت مرتبطة بالأسئلة الفكرية الكبرى التي أثارها الفلاسفة حول الإنسان منذ القدم، فيمكن التأكيد على منتصف الخمسينيات كمنعطف تاريخي أساسي في الحديث عن النشأة الحقيقية للعلوم المعرفية، كما سبقته قبل ذلك مجموعة من التطورات العلمية خلال سنوات الأربعينيات كتطور المنطق الرياضي الذي عرف ولأول مرة بناء المفاهيم والآليات والأدوات الضرورية للحساب الجديد، الشيء الذي كان له تأثير مباشر على ميلاد السيبرنيتيقا Cybernétique كتعبير عن الاختزال المادي أو الميكانيكي للذهن في قالب مادي، بالرغم من أن هناك اختلافا بين الباحثين في تحديد الحقول التي تنضوي تحت العلوم المعرفية ففي الوقت الذي يضع فيه ج.فينيون (Vignaux.G, 1989) الذكاء الاصطناعي والعلوم العصبية والفلسفة و السيكولوجيا واللسانيات كتخصصات متضمنة في العلوم المعرفية نجد ج. ف. لوني (Le ny.F.I., 1989) يحصر هذه التخصصات في الذكاء الاصطناعي، اللسانيات والسيكولوجيا المعرفية ويركز على الانتماء النسبي للعلوم المعرفية لمجالات أخرى، كجزء من المنطق وجزء من الأنثروبولوجيا وفلسفة الذهن والإبستمولوجيا والسيكولوجيا العصبية، كما يقترح ج. ف. لوني (Le ny.F.I., 1989) أن يتميز كل علم معرفي خاص بمنهج اختياري معين يؤكد مدى مصداقيته العلمية، كالبحث عن التماسك الصوري بالنسبة للمنطق، والملاحظة النسقية الدقيقة بالنسبة لللسانيات والتجريب بالنسبة للسيكولوجيا المعرفية والعلوم العصبية كل ذلك داخل إطار موحد هو المعرفية Cognition. هذا عن الإطار العام للحقل المعرفي كمجال يجمع بين تخصصات علمية متعددة تشترك كلها في صياغة مفاهيم جديدة لا تشكل في واقع الأمر إلا مراحل انتقالية نحو مستقبل العلم المعرفي، وفي خضم هذا التطور الذي عرفته هذه الاتجاهات المعرفية، بأي معنى يمكن الحديث عن السيكولوجيا المعرفية كحقل مستقل بموضوعه ومناهجه من جهة وكحقل يستمد مصادراته وأصوله الإبستمولوجية والفلسفية من العلوم المعرفية وأحيانا من خارجها؟ وما هي الملابس التاريخية التي ظهرت فيها السيكولوجيا المعرفية كعلم حديث أصبح ينافس إلى حد ما العلوم الدقيقة في مناهجه و مصداقية نتائجه العلمية؟

1- ظهور السيكولوجيا المعرفية:

إن علم النفس من المجالات المعرفية التي استطاعت تحقيق استقلاليتها من الناحية العلمية ولو نسبيا عن الفلسفة، منذ نشأته الفعلية خلال القرن التاسع عشر سواء تعلق الأمر بموضوعه أو بمنهجه، فاهتمامه بدراسة الإنسان تجلى دائما في رصد مختلف السيرورات النفسية والعقلية التي تنتظم وفقها حياته وتوافقها مع البيئة بصفة عامة، و يمكن التأكيد على أنه خلال النصف الثاني من القرن العشرين أصبحت السيكولوجيا العلمية تكتسي حلة جديدة تجلت في موضوعها الجديد الذي أصبح هو المعرفية Cognition حيث أمكن وصف السيكولوجيا المعاصرة على أنها مرادف لعلم النفس المعرفي Psychologie cognitive تفضي بنا القراءة المتأنية للأدبيات السيكولوجية الحديثة التي حاولت التعريف بالسيكولوجيا المعرفية إلى خلاصة قوامها

الإجماع حول أربعة عناصر أساسية كانت وراء ميلاد وتشكل أركان هذا العلم الجديد، الذي ينعت بالثورة المعرفية Révolution cognitive دورتي (1998), Dortier ويمكن إجمالها في:

1- يرتبط بصدور مقالة ل ج. ميلر G.Miller حول العدد السحري "سبعة" والتي نشرها في المجلة السيكولوجية وحاول من خلالها تحيين فكرة فوننت Wondt القديمة المتعلقة بمحدودية الذاكرة الإنسانية بحيث أنها تصاب بالارتباك عندما يصبح العدد أقل أو أكثر باثنين من سبعة، الشيء الذي حاول ج. ميلر Miller تأكيده هنا هو محدودية النفسانية الإنسانية Psychisme humain أي حدود الذهن البشري؛

2- يتجسد في كون ج. برينر J.Bruner وهو في نفس الوقت أحد زملاء ج. ميلر G.Miller ومن خلال أبحاثه المتعددة في دراسته لسيرورة التصنيف Catégorisation توصل عبر مطالبته تلاميذه بترتيب بطاقات من الألوان وأشكال مختلفة، إلى أن هؤلاء يستعملون طرقاً، أو استراتيجيات مختلفة فالبعض يتصرف انطلاقاً من بطاقة مرجعية واحدة و البعض يرتب البطاقات انطلاقاً من الإدراك الكلي لأوجهها وخلص إلى إثارة إحدى القضايا التي ستصبح بعد ذلك إحدى الدعائم الأساسية للمقاربة المعرفية والتي ستشكل الإرهاصات الأولية لنشاط الذهن الإنساني.

3- يتمثل هذا العنصر في الطابع التجاوري لهذه السيكولوجية الجديدة، من خلال التركيز على حالات الفرد الذهنية وعلى قدراته الاستدلالية و معالجة المعلومات، مما أدى بكل من ج. ميلر G.Miller و ج. برينر J.Bruner إلى إنشاء معهد هارفارد Harvard للدراسات المعرفية هدفه الأساسي بناء وإرساء دعائم السيكولوجيا على أسس جديدة، وعلى غرار ذلك رد الإعتبار للذهن ودراسة استراتيجيات وأدوات اشتغاله أي أنه تم وضع أسس السيكولوجيا المعرفية بتجاوز النظرية السلوكية التي تمت إزاحتها من الساحة العلمية.

4- تمثل الحدث الرابع في انعقاد أول حلقة دراسية بجامعة Darmouth في الولايات المتحدة الأمريكية في صيف سنة 1956 والتي جمعت الرياضيين والسيكولوجيين والمهندسين واللغويين والنور وعصبيين، حول موضوع إقامة أو بناء ذكاء اصطناعي قادر على التشخيص بالمحاكاة لإنجازات الذكاء الإنساني، وفي الواقع يمكن اعتبار هذه الحلقة الدراسية انطلاقة لما سييسى فيما بعد بالعلوم المعرفية.

2-1- نموذج معالجة المعلومات وتشكل حقل السيكولوجيا المعرفية:

بعد مرور سنوات قليلة على الأحداث السابقة بدأ النموذج السيكولوجي المعرفي في التبلور مستلهما عدة خصائص من النموذج المعلوماتي الذي يعتبر أن الدماغ يشغل على منوال الحاسوب. وهذا ما أدى إلى الإقرار بأن التفكير الإنساني هو تتابع للعمليات المنطقية التي تنجز أو تمارس على الرموز التجريدية. وقد أكد ج. فودور (Fodor., 2000) في هذا الصدد على مسألتين أساسيتين :

1- إن التفكير يتوقف على معالجة المعلومات أو بعبارة أخرى تحريك التمثلات.

2- إن السيرورات الذهنية تنجز على مختلف مستويات التنظيم بشكل تحصر معه العمليات المنطقية الخاصة.

لقد أجمع بعض الباحثين على أن السيكولوجيا المعرفية تستهدف الاهتمام بالكفاءات المعرفية انطلاقاً من السلوكيات، أي دراسة الإنسان من حيث طبيعة وشكل معارفه (تصريحية، إجرائية،...) مع الإهتمام بالإطار الذي ينظمها والاشتغال المعرفي، هذا يهتم الاكتساب العفوي، أو الموجه والتمثل والإبداع والخلق والتخزين والاستعمال المراقب للمعارف انطلاقاً من المعارف السابقة أو المعلومات المعروفة على أنها دائمة في الطبيعة حسب المهمة التي ينجزها الفرد أو التي تعترضه في حياته.

يمكن الإقرار على أن علم النفس المعرفي قد قام وتشكل أساساً على أنقاض السلوكية Behaviorisme التي تعتمد على الميكانيزم المعروف لديها (مثير – استجابة) كوسيلة لتفسير جميع السلوكيات الإنسانية، لكن سرعان ما أثبتت قصورها نظراً لعقمها ولعدم قدرتها على مواكبة التطورات المتلاحقة للعلوم المعرفية بشكل عام وللسيكولوجيا بشكل خاص.

وما حدث في هذا المنعطف هو أن علم النفس عمل على إدخال دراسة الظواهر الذهنية باعتبارها ظواهر غير ملاحظة ضمن أولوياته. فهذه الثورة المعرفية التي سبق الحديث عنها، فتحت المجال لاستئناف الدراسة والبحث في موضوعات وقضايا قديمة، مع تميز في طرح الإشكاليات والتناول المنهجي لها، كما أن العودة إلى هذه الاهتمامات سيؤسس لها علم النفس خلافاً لما حصل قبل أزيد من قرن من الزمن ع، بلحاج (2004).

يعد إذن علم النفس المعرفي من المجالات المتخصصة في الحقل السيكولوجي عامة، والذي يهتم بالمعرفية Cognition كموضوع للدراسة، والمنطوي أساساً على أدوات منهجية ونظرية أكثر دقة، من تلك التي كانت سائدة من قبل وذلك من خلال الإهتمام بالتشخيص بالمحاكاة لإنجازات الذهن الإنساني، في إطار بنية هذا الحقل السيكولوجي الجديد، المهتم بدراسة النشاط الذهني كنظام للإشتغال عند الإنسان يتحدد بكونه نظام تصوري نظري، يتفاعل فيه ما هو:

1. نظري، تصريحي، واعي، كوني، منطقي من جهة.

2. علمي واقعي، إجرائي آلي، محلي ثم تداولي من جهة أخرى.

أي في الأخير يمكن الإقرار بالنسبة لهذا النظام بطبيعة دينامية تفاعلية تجمع بين ما هو تمثلي رمزي وبين ما هو تمثلي حسي حركي، وهكذا يوصف النظام المعرفي بالأنشطة التي تنجز وظائفها عند الإنسان، ليصبح النشاط الذهني جزءاً من النشاط المعرفي، فالأنشطة الذهنية كما يؤكد على ذلك ج.ف. ريشارد (Richard.F.J., 1990) هي المسؤولة عن الأنشطة الحسية وتنفيذ ومراقبة السلوكيات كما يمكنها أن تحدد (الأنشطة الذهنية) انطلاقاً من طبيعة المعلومات أو القرارات التي تنتجها. فالمعلومات التي تنطلق منها الأنشطة الذهنية هي نتيجة للمعالجة الحسية. أي أن تحديد المواضيع، ومواقعها وحركيتها وتعاقبها هي القاعدة التي تمكن من إدراك الوقائع وتحديد العناصر المعجمية والمؤشرات التركيبية.

إن هذا الموضوع لا يمكن الحديث عنه بمعزل عن التمثلات والمقاربة المعرفية للمعارف، فماذا نعني إذن بالمعرفية؟

إن مفهوم المعرفة يعني النشاط الذي بواسطته يستطيع أي نظام معين سواء كان بيولوجيا، اصطناعيا، أو صوريا، اكتساب و تخزين واسترجاع واستعمال المعارف كتمثلات خاصة بنظام الإستغال من جهة والمحيط الذي يتفاعل فيه من جهة ثانية. غير أنه يمكن تسجيل بعض التداخل أحيانا بين هذا المفهوم ومفهوم المعرفة "لكون البعض يستخدم المعرفة تارة والمعرفية تارة أخرى ، و كأنهما مترادفان، غير أنه وبشيء من التدقيق نجد فرقا واضحا بينهما، فالمعرفة تعني الإعتقاد أو التمثل الصحيح، كما تعني جميع فعاليات الذات المنتجة للتمثلات، أما المعرفة فإنها تعني أيضا ما تنتجه الذات من معارف وتمثلات بغض النظر عن صحتها وخطئها ج. ف. لوني (Le ny.F.J, 1989) (1989)، إن المعرفة إذن تبدو أشمل ما دامت تعني ما هو متعلق بجوانب المعرفة الصحيحة والخاطئة وتعني أيضا النشاط الذهني وهذا ما يعبر عن فعالية الذات لأن النشاط ينتج معارف معينة قد تكون صحيحة أو خاطئة حسب نوع النشاط الذهني، ومراجعته وآلياته الحاج عنيبي (1997).

إن المعرفة تعني إذن وقبل كل شيء دينامية الذات وفعاليتها المعرفية إنها الفعل العقلي للذات، أي مجموع السيرورات العقلية.

2- السيكولوجيا المعرفية ومقاربة موضوع التعلم وسيرورات الاكتساب

إن المشروع الواضح للسيكولوجيا العلمية هو وصف وشرح أنشطة الكائنات الحية، والبراديغم الأساسي لهذا المشروع هي الذات المتموقعة في محيط يخضع لمثيرات تنتج أنشطة ملاحظة يعبر عنها بالسلوك الذي لا يمكن فهمه ولا تفسيره إلا باعتماد مسعيين إثنين:

- الأول يهدف إلى جعل العلاقات ثابتة بين السلوكات والمحيط الذي أنتجت فيه
- والثاني يهدف إلى توضيح العوامل الخارجية التي تحدد السلوكات وبشكل أساسي الظواهر القابلة للإهتمام من طرف الذات. وفي اعتقادنا هنا يكمن المسعى الحقيقي للسيكولوجيا المعرفية، التي توصف أيضا بأنها سيكولوجية النماذج.

1-2- بناء النماذج داخل السيكولوجيا:

ما المقصود بالنموذج إذن داخل السيكولوجيا المعرفية: يرى غ. تيرغان (Tiberghien.G, 1991) أن النموذج: هو خطاب منطقي رياضي حول العالم، لا يمكن اختزاله في مفهوم النظرية لأن هناك عدة نظريات لا تستجيب للقواعد المنطقية الرياضية المرافقة للظواهر في ظروف محددة، كما أن النظرية العلمية يمكن وصفها كنموذج من الدرجة العليا، أي أنها نماذج كونية يمكن أن تتفرع عنها عدة نماذج محلية،

وهكذا فالنموذج العلمي لا علاقة له بأي خطاب شعري أو ميتافيزيقي أو أدبي حول العالم، ولا يمكن اختزاله في أخطوطة معينة كما أنه ليس بنظرية بقدر ما هو ميكرونظرية Micro-théorie. في تصنيفه لهذه النماذج يذهب غ. تيبيرغان (Tiberghien, G, 1991) إلى إجمالها في ثلاثة أصناف كالتالي :

- أ- النماذج الوظيفية: النموذج الوظيفي ينطلق من مجموعة محدودة من المسلمات تمكن من تحديد العلاقات بين المتغيرات الملاحظة والمتغيرات الافتراضية في وضعية معينة.
- ب- النماذج البنوية: تهتم ببنية الشيء المعقد، وتلتزم بتوضيح خصوصيات وتنظيم المعلومات التي تنطبق عليها السيرورات الافتراضية.
- ج- النماذج المختلطة: هي نماذج تتجه نحو المزج بين الوظيفية والبنوية.

حسب ك. باستيان C. Bastien إن موضوع نماذج حل المشكلات عرف تطورا كبيرا في الآونة الأخيرة، من خلال إشكاليتين رئيسيتين : الأولى تتعلق بمدى عمومية هذه النماذج والثانية تعنى بالعمل بالإجراءات المنهجية المتعلقة بصدق هذه النماذج وهكذا أصبح من الممكن القول إن التطورات الحالية لإشكاليات علم النفس المعرفي تجعلنا نعتقد أن مستقبل هذه النماذج رهين بمدى قدرتها على الإهتمام بظواهر الإكتساب وتغيير المعارف ج. ب كافيرني (Caverni, J.P (1999).

2-2- مواضيع السيكولوجيا المعرفية :

يمكن التأكيد أنه مع السيكولوجيا المعرفية ظهرت تحولات جذرية في مجال علم النفس، ذلك أن الظواهر والقضايا التي كانت غائبة ولم يسبق أن شكلت موضوعا للدراسة.

والتقصي أصبحت هي التي تمثل النواة الصلبة للسيكولوجيا الحديثة في حين أن القضايا أو المشاكل التي كانت محط اهتمام أضحت مهمشة ومتجاوزة، ثم إن هذه السيكولوجيا شكلت نوعا من البرادغيم العلمي الذي يتخذ من الذهن في معناه الواسع الموضوع الأساسي في علم النفس، ذلك أن السيكولوجيا العلمية التي عاشت قرابة نصف قرن من الزمن تحت سيطرة ما يسمى بعلم نفس السلوك الذي لم يكن يهتم إلا بدراسة السلوك الظاهر وتوضيح العلاقات الوظيفية بين تغير الوضعيات وتغير الإستجابات الناجمة عن تصرفات الكائنات الحيوانية والإنسانية ، بيد أن الظواهر العقلية لم تكن تحظى بأي موقع في هذا الإهتمام، بل كانت مقصاة بدعوى تفادي مجمل الأخطاء التي وقعت فيها السيكولوجيا الاستبطانية. لكن الملاحظ أن السيكولوجيا المعرفية، قد اقتنعت فيما بعد على أن السيكولوجيا العلمية لا يمكنها الإكتفاء بالتجميع والتركيب الصوري للعلاقات الوظيفية المتصلة بالوقائع والأحداث الملاحظة، فالسلوك والمثيرات التي تثيره لا يمكنه أن يشكل غاية في حد ذاته، بل عليه أن يشكل نقطة انطلاق لبلوغ حقائقه المفترضة غير الظاهرة من قبيل التمثلات Les représentations، المعرفة Connaissance، القصدية l'intentionnalité، ثم الوعي Conscience، الغالي أحرشاو1997.

ومن أهم الرهانات الأساسية التي عرفت اهتماما كبيرا لدى علماء النفس المعرفيين نجد أن الانكباب على دراسة الوعي، Conscience، النماذج Modèles، القصدية intentionnalité، التمثلات Représentations، النمو والتعلم، وإذا كانت جل المفاهيم السابقة الذكر تعد قديمة إلى حد ما، وسبق تناولها في أدبيات العلوم الإنسانية عامة وعلم النفس خاصة، فإن موضوع التمثلات كما تم تأطيره داخل السيكلوجيا المعرفية يعد جديدا إلى حد ما. من خلال المقاربة المعتمدة عند J.F.Richard 1991 فإن التمثلات الذهنية تعتبر مفهوما مركزيا في السيكلوجيا المعرفية، وليس من السهل توضيحها، فحسب بعض الباحثين لا يمكن الإستقرار على تعريف محدد لها نظرا لما يعرفه موضوع التمثل من تباين واختلاف في تحدياته بين الباحثين، غير أن بريسون (Bresson, 1987) قدم تحليلا عميقا فيما يخص التمثلات وكذا ضرورة تمييزها عن المعارف. فالتمثلات هي انبئات ظرفية تحدث في سياق خاص ولغايات خاصة لمجاهاة متطلبات مهمة ما، فبناؤها في نظر بريسون Bresson يحدد المهمة وطبيعة القرارات التي يجب اتخاذها، في حين أن المعارف بالإضافة إلى كونها انبئات فهي دائمة ولا ترتبط بالمهمة المزعم إنجازها، فهي مخزنة في الذاكرة البعيدة المدى وتبقى على شكلها الأولي ما لم تتدخل متغيرات خارجية لتغير من شكلها J.F.Richard 1991، إن هذا التمييز بين المعارف والتمثلات نجده جليا عند س، إرليتس (1985) S.Ehrlich الذي يركز بدوره على التباين بين البنيات أو الكيانات الدائمة الخاصة بالمعارف والانبئات أو الكيانات الظرفية التي تشكل التمثلات، لأنه وكما يوضح (Denis.M, 1985) فوظيفة التمثلات هي استحضار الشيء أثناء غيابه، استحضارا ذهنيا، بمعنى أن الكيانات المعرفية التي يتم بناؤها في الذهن لأشياء أو وقائع أو أشخاص من العالم الخارجي، يتم الرجوع إليها على مستوى الذهن ولو في غيابها وخارج ظروف استعمالها الآنية. إن الإطلاع على بعض كتابات السيكلوجيا المعرفية الحديثة (الغالي أحرشاو وأحمد الزاهر 2005) يجعلنا نؤكد أن هذه السيكلوجيا، بمحاولتها تفسير الذهن الإنساني وكيفية اشتغاله، عبر نظام معالجة المعلومات، و مختلف العمليات الذهنية كالفهم، الإستدلال، والتفكير في تحقيق مهمة ما سواء عن طريق المعالجة الواعية أو غير الواعية تكون قد انفتحت على موضوع كان الحديث عنه بالأمس يعد من باب المحظورات. ولعل ما يزي هذا القول، هو التصور المعرفي للتعلم والنمو واللغة.

كيف حاولت السيكلوجية إذن مقارنة موضوع التعلم والنمو؟ ومن خلال ذلك ما المقصود بسيرورات الإكتساب؟

من المسلم به أن التقدم العلمي الكبير الذي عرفته المعرفية ساهم في خلق شروط إعادة الزواج بين الفلسفة والسيكلوجيا. فبعد مرور قرن تقريبا عن طلاقهما الدائع الصيت، وبعد أكثر من عشرين سنة من الإنتاجات العلمية والفلسفية التي همت ميادين "الفلسفة والذهن" و "الفلسفة المعرفية" و "الفلسفة السيكلوجية" ومع ظهور بعض المجلات باللغة الانجليزية مثل مجلة "الذهن واللغة" ومجلة "الفلسفة السيكلوجية" وكذا جمعيات مهتمة بهذا التقارب الإبستمولوجي الذي حصل بين السيكلوجيا والفلسفة كالجمعية الأوروبية للفلسفة و السيكلوجيا، بالإضافة إلى تواجد عدة مؤسسات عليا للتعليم تحضر شواهد في العلوم المعرفية مقترنة بالفلسفة.

3 - لماذا نظرية الذهن؟

أصبح الإهتمام بمجموعة من التحاليل التي يقدمها الفلاسفة بخصوص الذهن، عندما يحاولون الحصول على حقائق حول المعرفة الإنسانية *Cognition humaine* فمن جانبهم لا بد من التساؤل حول ضرورة اللجوء إلى الحقائق المتعلقة باشتغال وبنية المعرفة *cognition* وهل يمكن اعتبار هذه الحقائق قضايا فلسفية؟

يعتقد بعض الفلاسفة الطبيعيين أن الاختلاف الموجود بين الحقائق العلمية والحقائق الفلسفية هو اختلاف في درجة كل منهما، فمن حيث المبدأ لا يوجد اختلاف بين حقائق تجريبية وحقائق تصورية، أو قبلية *Apriori*، ولكن بالرغم من وجود عدة أطروحات ومفاهيم فلسفية في فلسفة الذهن لا يمكن بأي حال من الأحوال إخضاعها للتجربة والإختبار حول المعرفة. فثمة منطقة تلاقي المفاهيم *Zone intermediaire* تتموقع في التقاطع الحاصل بين الفلسفة والعلوم المعرفية والتي يمكنها الإجابة وبطريقة عقلانية ومتفائلة على التساؤلات السابقة. وهذه المنطقة البينية يمكن تسميتها من خلال استعارة المفهوم الكانطي "بالسيكولوجيا المتعالية" باسكال إنجيل (ENGEL,P.1996).

من أهم المجالات التي شكلت نقطة التقاء خصبة بين الحجاج الفلسفي والأبحاث في السيكولوجيا المعرفية، نجد نظرية الذهن، التي تعد الأكثر شيوعا من خلال التمثل، برمجة الفعل والاعتماد على فرضيات عامة، كتلك التي تهم النموذج القالبي. ولتوضيح هذه العلاقة يسوق باسكال إنجيل (ENGEL,P.1996)، عدة أمثلة:

1. مشكلة علاقة الذهن بالجسم،
2. إشكالية الوعي،
3. التمثل الذهني.

يتم مقارنة هذه العناصر من خلال القضايا الثلاث الآتية:

1. الوقائع الذهنية مستقلة عن الوقائع الفيزيقية.
2. الوقائع الذهنية لها تأثير في الوقائع الفيزيقية.
3. تعد الوقائع الذهنية هي المسؤولة عن ظهور الوقائع الفيزيقية.

وفي الواقع توجد وجهة نظر أخرى ترى أن الخصائص الذهنية هي خصائص وظيفية يتم إنجازها بطرق مختلفة من حيث البنيات الفيزيقية دايفيدسون (Davidson, 1980) التي تؤلف بين الاقتراحات والقضايا الثلاث السابقة، من خلال تأكيده على أن الوقائع الذهنية بالرغم من أنها متطابقة مع الوقائع الفيزيقية لا يمكن أبدا تفسير الأولى بالثانية. و يدافع هذا الباحث عن الطابع غير الاختزالي للحقائق أو الوقائع الفيزيقية، أي أنه يتموقع داخل الصف الفيزيقي أو المادي بالشكل الذي يتبنى فيه

ارتباط الوقائع الذهنية بالوقائع الفيزيقية إلى الحد الذي يصبح فيه كل تغيير ذهني مرتبطا أو موازيا للتغير الفيزيقي ويعتبر الجدول التالي تعبيراً عن مقارنة توضيحية لنوعية العلاقات والتفاعلات بين الوقائع الذهنية والفيزيقية حسب باسكال إنجيل (ENGEL,P.1996).

جدول1: نوعية العلاقات والتفاعلات بين الوقائع الذهنية والفيزيقية حسب باسكال إنجيل (ENGEL,P.1996)

العلاقة	التوازي (1)	الثنائية السببية (2)	الزعة الفيزيقية الضعيفة (3)	الزعة الفيزيقية القوية (4)
التطابق	-	-	-	+
الاختزال	-	-	-	+
التحقق	-	-	+	+
الوقوع	-	-	+	+
التفاعل السببي	-	+	+	+

إن هذا النقاش قد تمت إثارته منذ أكثر من خمسين سنة خلت، وكان دائما يصب في محاولة إبراز علاقة الذهني بالفيزيقي من خلال انطولوجيا الخصوصيات الذهنية والخصوصيات الفيزيقية وشروطهما التجريدية في التغير المتزامن الذي يعتبر ذات طبيعة منطقية خاصة، كما أنه من المهم جدا معرفة أن خصوصية علاقة الوقوع Survenance يمكن أن تهم أيضا العلاقة بين الخصوصيات الأخلاقية والخصوصيات الطبيعية لأن مفهوم الحدوث أو الوقوع Survenance ليس له طابع تفسيري، وإنما له طابع أنطولوجي باسكال إنجيل (ENGEL,P.1997).

إن مشكلة الوقوع Survenance بين الذهني والفيزيقي لا يمكنها أن تفقد طابعها الصوري إلا إذا اعتبرنا في السيكلوجيا المعرفية وجود وضعيات للتغير المتزامن للخصوصيات الذهنية والخصوصيات الفيزيقية. ولتوضيح هذه الخطوة يذهب باسكال إنجيل P.Engel إلى إثارة نقطة أكثر أهمية في هذا الصدد وتتعلق بقصدية التمثلات أو ما يسميه الفلاسفة محتوى الحالات الذهنية التي يقصد بها السيكلوجيون المعرفيون بنينة التمثلات على شكل لغة أو نظام داخلي من الرموز أي ما يسميه ج.فودور (Fodor, J, 1988). لغة الفكر Langage de la pensée.

لكن قد يصبح الأمر شائكا عندما نعي أن كل التمثلات ليست ذات طبيعة لغوية، فهناك تمثلات بالخرائط، بالصور، بالرسومات... يمكنها أن تكون تمثلات أكثر فعالية من التمثلات اللغوية.

إن خوض الباحث السيكلوجي في مثل هذه النقاشات قد يقود إلى مفاهيم أنطولوجية وأفكار قد تجعله ربما يتناول إبستيميا أو يتراح على اهتماماته الحقيقية بالرغم من أن ثمة أعمال داخل حقل السيكلوجيا المعرفية نفسها قد سقطت في نفس المسار، كما هو الشأن مع سبيلك (Spelke, 1991) أثناء دراسة تصور الأشياء عند الأطفال، حيث يعتمد بشكل مباشر على حجج متعالية كتلك التي يعتمدها كوين (Quine, 1960) في دعمه لتصور خصوصية الشيء أو المادة.

إن الهدف الرئيس من إثارة هذا النقاش وهذه الأفكار هو الإشارة إلى الشبكة الممكنة من الحجج المتوقعة في نقطة التقاطع بين الفلسفة والسيكلوجيا، أي إبراز ذلك الجانب المتعالي من السيكلوجيا الذي يشكل مجالا وسيطا Intermédiaire بين السيكلوجيا الخالصة Pure والعقلانية المحددة للشروط العامة التي يجب أن تستجيب لها التمثلات، والمفاهيم والتجارب باسكال إنجيل (Engel, 1998) والتي تمكن الذهن من أداء مهامه المعرفية Tâches cognitives.

كما أن إثارتنا أيضا لهذا النقاش والبحث عن المنطقة الخصبة التي تشكل نقطة لقاء بين فلسفة الذهن والسيكلوجيا جاء نتيجة سبين اثنين:

1. الإعتقاد الراسخ بأن التأسيس للإتجاهات الفرعية التي تظهر داخل علم من العلوم يتم أولا وقبل كل شيء من خلال البحث في الجذور الإبستيمولوجية.

2. إعتبار هذا النقاش هو المدخل الطبيعي لمقاربة موضوع نظرية الذهن داخل السيكلوجيا المعرفية.

4- اكتساب نظرية الذهن عند الطفل

4-1- تمثل الذهن عند الطفل:

تعتبر نظرية الذهن أو نظرية النظريات أحد الأطر النظرية التصورية التي تنطلق حسب جاك لوثري (Lautery, 1994) من فكرة عميقة، يتساءل من خلالها الباحث حول مسار البحث السيكلوجي في النمو المعرفي، ذلك أن الإنسان يكتسب المعارف في إطار تصوري يستحيل فيه الفصل بين المفاهيم وسيرورات الإكتساب ومن خلال ثلاث دعائم أساسية:

1. الفئة: تعني ذلك الإشتغال الذهني الذي يعمل على التفيء.

2. الخطاظة: تعني جملة من المعارف المترابطة التي تعمل على بنينة إدراكنا للواقع.

3. النظرية: تعني المعرفة التي يكتسبها الطفل حول العالم والذات والذهن ذلك أن كلمة نظرية تترجم فكرة مفادها أن بعض المعارف الأولية في كنهها تتميز بالإتساق الكافي بتشبيهها بالنظريات العلمية من حيث تنظيمها ووظيفتها في اكتساب معارف جديدة، فأغلب الدراسات التي اهتمت بنظرية الذهن هاته تركز على النظريات الساذجة التي يبلورها الفرد انطلاقاً من تجاربه المعيشية التي تختلف بطبيعة الحال مع النظريات العلمية من حيث كمية مظاهرها.

كما يمكن التأكيد على أن هذه الأعمال تصب في الإتجاه العام للبحث حول بنية المعارف في الذاكرة البعيدة المدى، والتي قادت الباحثين خلال العقود القليلة الماضية إلى الإبتعاد عن الوضعيات الإختبارية المنجزة في المختبر، لدراسة بنية المعارف الخاصة بالوضعيات أو المواضيع الطبيعية أو اليومية جاك لوثري (Lautery,1994).

2-4- المطامعرفية ونظرية الذهن:

خلال سنوات السبعينيات من القرن الماضي، بدأ الإهتمام باكتساب استراتيجيات التعلم يتزايد لدى الباحثين بالتركيز على المعارف التي يتوفر عليها الأطفال من خلال الإشتغال المعرفي عبر المعارف الميطامعرفية. ومن الصدف العلمية أن الباحثين الذين اهتموا في السابق بالنشاط المطامعرفي هم أنفسهم المهتمين بنظريات الذهن. وهذا ما أدى إلى تطعيم الأبحاث حول المطامعرفية وإغنائها من خلال الإشتغال حول الضبط المطامعرفي للسلوكات وحل المشكلات ، واستعمال الإستراتيجيات المناسبة في التعلم، والأخذ بعين الإعتبار ليس فقط المعارف الأولية التي يتوفر عليها الأفراد وإنما أيضا المعارف المدمجة الخاصة بالإشتغال السيكولوجي بشكل عام، أي دراسة نظرية الذهن، ومعرفة السيرورات و كيفية تغيرها خلال النمو، وتوضيح إلى أي حد يستطيع الأطفال البحث عن الوحدات أو الكيانات الذهنية المناسبة للتنبؤ وتفسير السلوكات الإنسانية الملاحظة. وفي هذا الصدد نذكر أعمال أ.م.ميلو (Mrlot,A.M, 1993) التي عملت على جرد المعارف والتمثلات التي يتوفر عليها الأطفال في مختلف مراحل النمو التي تهم أنواع مظاهر الإشتغال الذهني سواء المتعلقة بهم أو المتعلقة بالأفراد الآخرين. فقد نتج عن بعض التجارب التي همت ألعاب التشابه، أن لدى الأطفال تمييزاً بين الكيانات الذهنية والكيانات الفيزيائية من خلال إنتاج مفردات وكلمات تشير إلى حالات ذهنية، كالإدراك، التمييز بين المظهر والحقيقة، وتفسير الأفعال الإنسانية والتنبؤ بها بالرجوع إلى الحالات الذهنية كالرغبات، المقاصد، الاعتقادات والتصورات الخاصة بأصل المعارف.

لقد إستطاع ليسلي (Leslie,1987,1988) من خلال دراسة ألعاب التشابه لدى الأطفال أن يؤكد أنه في سن 18 شهراً يبدأ هؤلاء في تحديد الوظيفة الأولية للأشياء، ويتم إدماجها في وضعيات إفتراضية تجعل الطفل يفكر، ولعل المثال الشهير ل Leslie أن الطفل يستعمل موزة Banane كسماعة الهاتف، أي أن هذه التقنية (ألعاب التشابه) تستعمل كتمثلات منفصلة عن الأشياء التي يتم تمثيلها، وهو ما يشكل لدى بعض الباحثين بناءاً لنظرية الذهن، بينما يعتقد آخرون أنها لا تركز على ازدواجية بناء أو تمثل الوضعيات ولكن على بناء وضعيات مختلفة، أما ظهور الكيانات الذهنية المسؤولة على بناء هذه التمثلات فإن كلا من ويلمان وإيستيس (Estes & Wellman, 1987, 1988) يركزان على ثلاثة معايير أساسية:

1. بديهية المعنى: تعني أن الشيء الواقعي يمكن لمسه باليدين، ورؤيته بالعينين وتحريكه، وتكسيه...
2. الوجود العام، l'existence publique: أي أن الآخرين يمكنهم رؤيته و لمسه و تحريكه في الواقع وكما هو موجود بالفعل، وليس عن طريق الصورة الذهنية التي تبني حوله.
3. الوجود الدائم l'existence Permanente: أي أن الشيء الواقعي يستمر في الوجود رغم عدم الإستمرار في رؤيته أو لمسه (وهو الأمر الذي يصبح مستحيلا في حالة الصورة الذهنية التي تمثل هذا الشيء).

من خلال أعمال وتجارب كل من ويلمان وإيستيس (Estes & Wellman, 1987, 1988)، فإن 75% من الأطفال في سن الثالثة تتطابق أجوبتهم مع أجوبة الراشدين، كما أن الأخطاء التي وقعوا فيها هي واقعية أكثر منها ذهنية، وتؤكد على وجود تمييز بين الأشياء الفيزيائية والأشياء الذهنية، التي لا يمكن رؤيتها و لمسها و تحريكها، لأنها توجد في الذهن.

خاتمة:

يمكن القول إن مقارنة نظرية الذهن في السيكلوجيا المعرفية قد عملت على إعادة رسم العلاقة بين الفلسفة وعلم النفس بالرغم من انفصالهما التاريخي منذ القرن التاسع عشر، إلا أن التفكير الفلسفي ظل يلاحق مواضيع العلوم الإنسانية عامة وعلم النفس على وجه الخصوص من خلال مبحث هام يسمى فلسفة الذهن. غير أن ممانعة بعض علماء النفس المعرفيين ورفضهم الرجوع إلى التفكير الفلسفي في معالجة كثير من القضايا السيكلوجية، لا يمكنها أن تحجب عنا حقيقة العلاقة التي لازالت تربط السيكلوجيا المعرفية بالفلسفة من خلال التقاطع والجسور المعرفية الكبرى التي ما فتئت تظهر بوضوح في العلوم المعرفية التي تشكل فلسفة الذهن وعلم النفس المعرفي أحد أقطابها الرئيسيين.

لائحة المراجع

- أحرشواو الغالي: 1988 "مظاهر العلاقة بين الاكتساب اللغوي والنمو المعرفي". مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، عدد خاص رقم 3
- أحرشواو الغالي: 1993 "الطفل واللغة، تأطير نظري ومنهجي لتمثلات الدلالية عند الطفل"، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء/ المغرب..
- أحرشواو الغالي، 1997 "العلوم المعرفية وتكنولوجية المعرفة". مجلة معرفية، فاس، العدد الأول.
- أحرشواو الغالي وأحمد الزاهر، 1997 "الاشتغال الآلي والمراقب وسيرورات التعلم عند الطفل"، منشورات CREPS، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرز، فاس، الدفتر الأول.
- أحرشواو الغالي وأحمد الزاهر، 1999 "مفهوم التمثل في العلوم المعرفية"، فاس، العدد 3/2.
- أحرشواو الغالي، 1999 "سيرورات الاكتساب بين النمو والتعلم"، مجلة الطفولة العربية، العدد الأول.
- أحرشواو الغالي وأحمد الزاهر، 2005 "التمدرس واكتساب المعارف عند الطفل". منشورات مركز الأبحاث والدراسات النفسية والاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرز، فاس، العدد 3.
- عبد القادر الفاسي الفهري، 2003 "اللغة والبيئة" منشورات الزمن، الدار البيضاء/ المغرب.
- عيني الحاج، 1997 "الطفل الراشد أو جدلية التمثلات". منشورات CREPS كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرز، فاس، الدفتر الأول.
- عيني الحاج، 2005 "تعلم المفهوم لدى الطفل مقدمات نظرية". منشورات REPS، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرز، فاس، العدد 3.

Bibliographie

- Aãmalia Medes, 1999 « Analyse aspectuelle et structure lexico-conceptuelle des verbes psychologiques », centre de linguistique de l'université de Lisbonne (CLUL)
- Ahmed AZZAHHER, 1997 « la cognition entre l'esprit et l'ordinateur. Cognition" n° :1. Fès.,
- Dortier.J-F, 2005 Quant l'enfant acquiert la théorie de l'esprit » in l'enfant et ses intelligences, Mensuel n° : 164.
- Pascal Engel, 1998«Philosophie de l'esprit et psychologie : du transcendantal a l'empirique ». Psychologie française, 44,3,257-264.,

- J.F.LNY, 2001 « La sémantique psychologique des verbes », congrès national de La Société de psychologie-Poitiers, 2003.
- Anne-Marie Melot, 2001 « La représentation de l'esprit chez l'enfant », pour la science n° 279.
- Jacques Lautry, 1999 « Pourquoi est il parfois si difficile d'apprendre », 10° entretiens de la villette.,
- Pierre Jacob, 2003 « Esprit et cerveau, Grand dictionnaire de philosophie » la rousse.
- Jacques Cosnier et autres, 1982 « Les voies du langage, communication verbales gestuelles et animales ». Dunod. Bordas. Paris.
- Flavell John.H, 2000 « Development of children's knowledge about the mental world », international journal of behavioral development. Stanford University, CA.USA.,
- Flavell.J.H, 2001 « Development of children's understanding of connections between thinking and feeling ». Stanford, USA .
- Lautrey-J. et Mazens.K, 1999 « Le changement conceptuel : l'évolution des idées naïves des enfants sur le son ». Besanson, France.;
- Melot.Anne-Marie, 1993 « Métacognition et théories de l'esprit, Journal international de psychologie », 2 (5).581.593.,
- Melle Emilie Chanoni, 2004 « Rôle du langage dans le développement de la théorie de l'esprit, chez les enfants de 3 à 5 ans », thèse de doctorat université de cœur ,Basse-Normandie .U.F.R de psychologie.
- J.F.Le Ny, 2003 « La sémantique psychologique », Congrès National de la société Française de psychologie. Poitiers.
- Jacques M'ermont, 2005 « pour une théorie de l'esprit : cognitions, Passions et communications », Résonances n° 10-11 .
- Villiers et al, 2003 « lien entre langage et théorie de l'esprit ». séminaire AAI., Christophe Parisse, 2002 « Le débat inné acquis et le développement du langage à l'aube du 21ème siècle ». INSERM, Paris.
- Le Ny (J.F), 1989 « Science Cognitive et compréhension du langage », Paris, P.U.F .
- Le Ny (J.F), 1979 « La mémoire psychologique » Paris, P.U.F .
- Le Ny (J.F), 1979 « La sémantique psychologique » Paris, P.U.F .
- Le Ny (J.F), 1975 « Sémantique et psychologique » langages, 40, 3-29.

- Mounoud (P), 1985 « La notion de représentation en psychologie génétique », psychologie française, Paris, T : 30-3-4 ,
- Piaget (J), Inhelder (B), Mémoire et intelligence, Paris, P.U.F.
- Piaget (J), Inhelder (B) 1959 « la genèse des structures logique élémentaires, classifications et sériations » Neuchâtel, Delachaux et Niestlé, 1959.